القضاء والقدر

للأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوى جوهرى

لهج الناس فى كل زمان ومكان بذكر القضاء والقدر . ويقولون : إن الله يقول « إنا كل شىء خلقناه بقدر » وإذا كان كذلك فلم العذاب ولم العقاب والعتاب؟ — ثم إنه رحمن رحيم ، فأين الرحمة للمعذبين وأين السعادة للمظلومين ولمن هم فى عذاب الجحيم ؟

هذه حال الانسان على أى ملة كان ، وأى دين فى مشارق الأرض ومغاربها ، حيرة لاحد لمداها ، وأسئلة لاجواب عليها إلا من أناس صفت نفوسهم وعلت عقولهم ، فيكون نوع الانسان أشبه بالعين .

هذه صورة منطبقة على أهل هذه الأرض أجمعين ، فهاك أيها الذكى فاستمع ما ألقيه الساعة اليك بقلب صاف ونفس واعية ، وتدبر فانه لهذا الداء دواء ، ولمرض الحيرة فى القلب شفاء وكن من المستبصرين .

لأضرب لك أولا مثلا ، برجل مهندس عبقرى فى الهندسة ، عزم على أن يبنى بيتاً — وهو بانواع البيوت عليم — ففكر فى صورها بعقله وانتزع منها صورة صورها فى نفسه ، واصطفاها لمسكنه ثم رسم ما اختاره وبناه وشاده على أحسن منوال وأجمل مثال ، وفى البيت فرش مرفوعة ، وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وزرابى مبثوثة ، وعلى حيطانه أنواع الصور المختلفة الأشكال ، البديعة الجمال ، ويحيط به بستان ، تقر به عيون الناظرين ، ويسر بمرآه جمهور الزائرين ، فدخل البيت زائرون : منهم العميان ومنهم المبصرون ، ولما كان هذا المهندس كريم الشيم ترك للزائرين الحرية أن يدوروا فى البيت كما يشاؤون ، ويتفرجوا على فرشه ونمارقه وأشجاره وهم آمنون .

فانطلق أحد العميان فى المنزل ، فاصطدم فى أرض الحجرات بالأرائك ، فخر على الأرض كالصريع ، وما كاد يقف حتى لطمته الألواح المعلقات فأدمت أنفه ، وما كاد يمسحه أو يغسله وقد مشى خطوات حتى سقطت رجله فى المرحاض فقعد حزيناً كئيباً ، وأخذ يقول : إن رب هذا البيت رجل عظيم ورحيم ، فكيف خاب ظنى فيه ؟ فأين الهندسة والنظام ؟ وأين الكرم والرحمة للزائرين ؟

ولم يزل كذلك حتى جاءه رجل مبصر ، فاخذ يشرح له دقائق البيت وما فيه من الجمال وحسن الأتقان ، ففرح أشد الفرح وقال : هذا هو النظام ، وهذه هى الرحمة والاحسان .

هذا أيها الذكى هو المثل الذى ضربته لبيان هذا المقام .

إن علم المهندس بنظام البيوت واصطفاءه منها واحداً هو أجلها، ضرب مثل للقضاء. فالقضاء راجع لما ثبت فى العلم القديم للمكونات . وإبراز البيت على ماقدره المهندس في نفسه على أحسن منوال، ضرب مثل للقدر لأنه راجع لظهور المخلوقات على ما سبق به العلم القديم .

العميان ضرب مثل لجميع الجهلاء على أى دين كانوا، ولطائفة الملحدين والمتعلمين تعليما ناقصاً فى مدارس الشرق والغرب أجمعين .

والمبصرون ضرب مثل لأناس جادت قرائحهم، وزكت نفوسهم واشتد شوقهم للعلم والبحث فلم يكونوا كأولئك العميان يهرفون بمالا يعرفون .

فدرسوا هذه الدنيا دراسة متقنة من الرياضيات والفلك والطبيعيات ، وأدركوا بصفاء عقولهم جمالها وبهاءها ، ثم رجعوا إلى إخوانهم وأخذوا يخاطبونهم بما يفهمون ويكلمونهم بما يعقلون — وسعدوا سعادة لاحد لمداها وكانوا من الفائزين . وهؤلاء يقال لهم « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » فاذا سمعوهم يتحدثون في القضاء والقدر يخاطبونهم قائلين : أيها الأعزاء ليس لامرىء أن يقصر فى عمله محتجاً بالقضاء، فتلك حجة الكسالى الغافلين، فاذا ماأتم على حقيقته واجتاحته الجوائح فهنالك يقول : القضاء سلوة المنكوبين وراحة اليائسين .

إن هذه المسألة ليست بنت اليوم ، ألم تروا كيف يقول الله حكاية عن كفار العرب أيام النبوة « وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولاحرمنا من شىء» فرد الله عليهم مهدداً بالوعيد فقال « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون . قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين » .

ونقول : كما قامت حجة المهندس رب البيت على الأعمى ، هكذا تقوم حجة الله على من يخوضون فى القضاء والقدر وهم جاهلون .

إن الأمم التى فتحت على نفسها باب القضاء والقدر هى التى استعدت للفناء وباءت بالوبال ونسيت عقولها وعدتها حملا ثقيلا عليها لأنهم على الشهوات عاكفون، وفى غمرة الجهالة ساهون وكيف يفتحون هذا الباب وهم يجهلون؟ وأنى للعميان أن يدركوا محاسن الجمال فى الفتيات والفتيان؟

إن المسلم الذى شغله القضاء والقدر وهو بعد لم يدرس نظام الدنيا وعلومها لحرى به أن يبوء بالخسران . فهذه الطائفة فى الدين أشبه بأولئك الذين يجلسون فى أماكن الشرب العامة ببلادنا المصرية ، ويدور كلامهم على سياسة الدول وأسرارها ، وهم يجهلون سياسة منازلهم وأمتهم ، فهم فى ذلك مغرورون .

إن الناس ثلاث طبقات: عامة مصدقون ، وحكماء محققون، ومتوسطون بين هذين مذبذبون متحيرون . فالفريقان الأولان مطمئنون، والفريق الثالث جعلت حيرته مهازاً يسوقه إلى البحث فاذا قصر فهو فى ضلال مبين .

وكيف يخوض فى القضاء والقدر من يجهل تشريح جسمه و بدائع تركيبه ، وأن فى كل عين من عينيه سبع طبقات وثلاث رطوبات — ومن الطبقات السبع طبقة تسمى الشبكية وهى لا تزيد فى سمكها على سمك ورقة الكتابة ، وهذه وحدها فيها ثلاثة ملايين مخروط وثلاثين مليون اسطوانة وهذه كلها مبنية بالتصوير الشمسى واضحة. و بهذه الملايين يكون الاحساس والنظر.

بعد كتابة ما تقدم فى هذا المقال وجه الى أحد الاصدقاء اعتراضا جاء فيه ما يأتى : —

إن هناك فرقا بين المثل والممثل له ، فان المهندس رب البيت ليس مسئولا عن العمى فليس من حق الأعمى الذى حصل له الألم بشج رأسه أن يقول له لم كنت أعمى ؟

لأن المهندس لا سلطان له على عين الأعمى . ولكن الممثل له غير ذلك ، فان الذى أصبح متشككا متحيرا فهو نفسه من صنع الله ، واذن فالأشكال باق والمسألة على حالها والمثال لا يجدينا نفعا ، فأمن الحاضرون على كلامه وسكت قليلا ثم تبسمت وقلت: لا إشكال ، لا إشكال، فقال الحاضرون أين أين البرهان ؟ فقلت : هناك اسرتان ، أسرة كبرى وهى نوع الانسان وأسرة صغرى وهى المعروفة ، ألستم ترون فى الأسرة الصغرى أن صاحب المنزل هو الذى يديره وأن الخدم لا اعتراض لهم عليه فى الغالب ، وأن أطفاله لا يفقهون شيئا مما يفعل أبوهم إلا بالتدريج ؟ قالوا نعم . قلت فهل وجود الاطفال مع جهلهم المطبق بنظام المنزل يعتبر عند العقلاء خللا وظلما؟ قالوا كلا ، بل الاطفال نعمة وعدم وجودهم يعتبر نقمة . فقلت : إن العامة فى العالم الانسانى يمثل لهم بالخدم لأنهم يعملون ولا يفكرون إلا قليلا ، وأما رب البيت فهو ضرب مثل بصانع العالم ، وأما الاطفال فيمثل لهم بالطبقة الوسطى من المتعلمين الذين ارتقوا عن العامة قليلا وفكروا فى نظام هذه الدنيا ، فهؤلاء أطفال الانسانية ، والأطفال خلقوا ليجلسوا محل آبائهم. والمتعلمون نصف تعليم هم حكماء الأمم فهؤلاء اذا أحسوا بحيرة فهذه الحيرة نعمة لا نقمة ، لأنها تدفعهم الى استيعاب العلوم فاذا كسلوا وناموا كما هى الحال عند كثير من المتعلمين الحاليين، فانهم لا جرم يحيون حياة كلها اضطراب و يرجعون القهقرى وتكون الشهوات سلوتهم الوحيدة . وهذا هو السر فى تأخر بعض أمم الشرق التى كثر العلم فيها ولكن لا استقلال لها لأن الرجال القائمين بأمرها يبنون حياتهم على أساس علمى غير مكين، فهل وجود أطفال الأمم خلل فى النظام ؟ قالوا كلا لأنهم يبحثون عن الحقائق كأطفالنا . قلت : اذن العميان فى مثل المهندس رب البيت ضرب مثل لهؤلاء باعتبار نقصهم ، وخلق الناقص المستعد للكمال حالا أو مآلا عدل وحكمة وكمال. فقالوا نعم ، فقلت الحمد لله إذ عرفتم الحقيقة ؟ طنطاوى جوهرى